الأستاذ ماسينيون
عضو مجمع اللغة العربية

جرؤ ماسنيون على مجابهة الفكر العام الرسمي بفرنسا عندما هب عام 1953 للدفاع عن ملك المغرب جلالة محمد الخامس وعن ابنائه المجاهدين (وفي طليعتهم جلالة الحسن الثاني) الذين زج بهم الاستعمار في غياهب حالكة بعد أن مهد لهذه البادرة المنكرة بسلسلة من الاختلاقات المزيفة لتبرير فعلته الشنعاء .

الاستاذ لوي ماسينيون من المع الشخصيات الفرنسية التي كان لها ضلع قوي في تركيز حركة الاستشراق بوجه عام والدراسات العربية بكيفية خاصة وقد شغل كرسيا هاما في كلية السربون واختاره مجمع اللغة العربية بمصر عضوا فيه وبذلك اندرج في سلك من ادى للغة الضاد على الصعيد العربي رسالة رائعة .

لقد مات ماسينيون وترك صدى محاضراته يرن في ردهات الجامعات العربية والمؤتمرات باسلوبه العربي المركز ومنطقه الرصين وعمق نظراته الى المشاكل التي واجهتها اللغة العربية في انتفاضتها المعاصرة ازاء التطور العلمي الحديث .

عرفته منذ عقدين من السنين من خلال مؤلفاته وتعرفت اليه مباشرة منذ تسع عشرة سنة عندما زرته بمنزله بزنقة فرانسوا الاول رقم 1 بباريس في صيف 1945 م. وتلمحت في الرجل من هذا وذاك عبقرية فذة وروحا فياضة وارادة فولاذية وايمانا يتفجر معينه بما يدعم المثالية الحق وكان في هذا وذاك موسوعة حية تنبثق معطياتها عن شعور متوثب بأمثلية القيم الروحية وتبلور هذا الاحساس منبعثا من سويداء ماسينيون الفيلسوف في صور تصدم كل من يتصل بالرجل اذ صراحة ماسينيون وصموده لمبادئه كانا يثيران خضما من الاحاسيس اللاذعة في الاوساط المختلفة التي دانت للعالم بأبحاثه النيرة والتي كانت تحدوها حوافز شتى الى التكيف المرن ولو على حساب الكرامة الانسانية والمثل العليا .

وقد جرؤ ماسنيون على مجابهة الفكر العام الرسمي بفرنسا عندما هب عام 1953 للدفاع عن ملك المغرب جلالة محمد الخامس وعن ابنائه المجاهدين الذين زج بهم الاستعمار في غياهب حالكة بعد أن مهد لهذه البادرة المنكرة بسلسلة من الاختلاقات المزيفة لتبرير فعلته الشنعاء ! قام ماسينيون آنذاك وصرخ في وجه الساسة الفرنسيين داعيا باسم مبادىء الثورة الى احترام حق المغرب في الحياة واحترام هذه الانتفاضة الملكية السامية التي دفعت ملك المغرب الى التضحية بعرشه ليعيش الشعب وليحيا الوطن ! كانت صرخة مدوية ارسلها ماسينيون مع ثلة من رفاقه في قلب باريس فسجلها له التاريخ بمداد الفخر ! وقد ذهب ماسينيون ابعد من ذلك فزار الملك الراحل محمد الخامس في جزيرة مدغسكر معطيا بذلك انصع دليل على تجاوب الأفكار الحرة رغم الفروق السلالية والحواجز السياسية.

وكان ماسينيون في كل حركاته مستمدا من هذه الروح الوثابة التي وسمت الاسلام بميسم خاص فكان يردد انه اذا كانت المسيحية قد لقنت البشرية مبادىء الاحسان فان الاسلام قد نفخ في روح الانسانية فيضا من الايمان وهذا هو ما حدا ماسينيون الى اعتناق الاسلام في فترة من حياته وكان يحكي لمن يطرقه من

الزوار المعجبين بـه عن الملابسات التي احـدقت بـهذه الفترة ، وقد كان آنذاك في القاهرة وانتابته ازمة فكرية طوحت بجثمانه فانهار فى مرض مخيف وبات معارفـه من علماء الازهر وأعضاء المجمع اللغوي يرتـلون القرآن في مخدعه فأفاق وقد شفي مما كان قـد ألم بـه وعرف للقرآن هذا الفيض من النور فكان يعترف بـأن القـرآن شفاء للناس وهو من هؤلاء الناس .

لقد درس ماسينيون التصـوف الاسلامي وكتب عـن الحلاج ومقتل الحلاج وفلسفة الحلاج مجلدا ضخما يقع في الف صفحة قرأته بامعان واعجاب منذ عشرين سنة فلمست في نبراته الروحية اقتدارا فذا على سبر بعـض اغوار هذا الفكر الباطني الاسلامي الذي أضاف الى القدر المشاع بين البشر نبعا جديدا حاول ماسينيون أن يعبر عن مدركاته الرقيقة لاول مرة في تاريخ اللغة الفرنسية بأسلوب عميق خلق لعدد غير قليل من المناطيق والمفاهيم الصوفيـة مقابلا في الاصطلاح الفلسفي الغربي ! وكنت اتوسم من خلال تعابير ماسينيون الفنية بالاداة اللغوية الفرنسية مجهودا كثيرا ما يوفـق لان الصورة الباطنية تبرز احيانا في مظهر ينم عن مخبرها الرائع وقد اردف ماسينيون هذا المجهود بدراسات حـول الاصطلاحـات الفنية الصوفية .

وكان ماسينـيون يرجـع التصوف الى اصل اسلامي صرف هو القرآن مؤكدا ان التصوف في انبثاقاته الاولى ليس سوى تلك الاشراقة الروحية المنبعثة مـن دراسـة القرآن والمستمدة من نبعه الفياض وان التـطورات التي طرأت على الفكر الصوفي من جراء التأويلات الباطنـية الجديدة التي تتجلى خاصة في كتب ابن عربي الحاتمي انما تأثرت – في نظره – بالنزعة الصوفية المسيحية التى اقتبست هي الاخرى من مصادر فلسفية ابرزهـا مذهب الاشراق فى المدرسة الافلاطونية الحديثة بالاسكندريه .

ولم يفت ماسينيون القيام بدراسات اجتماعية لم تقل عمقا عن ابحاثه الصوفية ولـكنها اتسمت بموضوعـية اعطت الدليل على جانب لم يخل منه فكر ماسينيون وهو الواقعية فقد قام سنة 1923 و 1924 بتحقيقات في المغرب وحرب الريف مستعرة الاوار – فاتصل بالتجار واصحاب الحرف بعدد من الحواضر المغربية هي فـاس ومراكش والربـاط وسلا ومـكناس والدار البـيضاء وتـارودانت واسفرت تحرياته عن احصائيات مدققة نمت عن اهمية العناصر الصناعية بالمغرب آنذاك فتبين ان عدد الصناع والمحترفين والتجار في تلك الحواضر يبلغ مبدئيا نصف السكان .

وقد قام ماسينيون بتحريات أخرى في باقي الاقطار الاسلامية تجلت فيبعض كتبه مثل «رائد العالمالاسلامي» و «الاوقاف فى الاسلام» .

وهـكذا خمدت جـذوة رجـل بعـد أن أدى للفـكر وللانسانية أجل الخدمات .

عبد العزيز بنعبد الله